MARINA MESOPOTAMICA 20(1):265-276 2005

أوضاع أهوار العراق ضمن الفترات الزمنية

عبدالله حسين المؤمن

أكاديمية الخليج العربي-البصرة-العراق

المقدمة

بما ان الاعتراف بالكرامة الانسانية الموروثة والحقوق المتساوية لكل اعضاء العائلة الانسانية في أي مجتمع من الاسس الثابتة للحقوق والعدالة والسلام في العالم فان ما مر به سكان الاهوار من الاهمال والاحتقار للحقوق التي يستحقونها من قبل الانظمة التي مرت على العراق وعدم معرفة مطاليبهم الانسانية قد ادى هذا التصرف غير المستند الى الشرائح السماوية والاعراف الدولية لهذه الفئة الخيرة من المجتمع مما ادى الى ظهور بعض التصرفات التي يسمونها همجية من راي الظلام من الحكام ولكن هذه التصرفات هي تعبير لصمودهم ووقوفهم ضد هؤلاء الحكام الذين تسلطوا على رقاب لتحقيق مآربهم الشخصية لان هذه الفئة من سكان الاهوار وصلوا الى حالة حرمانهم من ماء الشرب مما ادى الى انتفاضتهم وبالاخص ضد النظام البائد ومن كان ينادي بحقه لدى السلطة الظالمة يعتبر نفسه من الذين يدافعون عن حق هؤلاء ان روحه زاهقة بأمر الظالم ... حيث اصبحت الاهوار في العراق وفي فترة النظام السابق ما هي الا عبارة عن اراضي خالية من المياه والثروة الحيوانية مما ادى بذلك لهجره سكانها الى المدن وان القضاء على الحياة الطبيعية الذي منحها الله جل جلاله لها قد دمرها الحكم السابق خوفاً ان تعتبر مصدراً قوياً ينطلق منه المعارضين لنظامه التعسفي بحكم كثافة القصب والبردي الكثير المتوفر بها قد يكون ساتراً للمعارضين وحمايتهم.

أصل الاهوار ونشأتها

هناك ثلاثة آراء حول نشأة الاهوار وكيفية تكوينها :-

الرأي الاول:- يعتقد ان المنطقة كانت مغمورة بمياه البحر الى ما قبل الالف الرابع قبل الميلاد ثم انحسر البحر تدريجياً الى الخليج العربي بعوامل الترسبات وتخلف جزء من بعض المنخفضات فكونت هذه الاهوار وبمعنى اخر ان ساحل الخليج العربي كان في القديم شمال الحدود الحاضرة.

الرأي الثاني:- ويعتقد بان المنطقة تكونت نتيجة التواء قشرة الارض مما ادى ارتفاعها في بعض الاماكن وانخفاضها في البعض الاخر ويعتقد اصحاب هذا الراي بان الاهوار كانت اهوار منذ الازل ولا يوجد دليل تاريخي على ان راس الخليج العربي كان في السابق شمال موقعه الحالي بل ان هناك جيولوجية تدل على ان راس الخليج وعلى ازلية الاهوار واستمرار انخفاضها بسبب الحركة التكنونية.

الرأي الثالث: فيعتقد ان الاهوار تكونت نتيجة للفيضان الهائل لنهري دجلة والفرات الذي حصل في القرن السابع الهجري أي بحدود العام 628 م حيث طغى النهران دجلة والفرات مرة واحد بحيث لم يعد بامكان أي جهد بشري ايقافه مما ادى الى تخريب السدود وتحويل مجرى الانهار تحول المناطق الجنوبية الى مستنقعات واهوار عرفت عند العرب بالبطائح.

ويعتبر نهرا دجلة والفرات المصدر الرئيسي لمياه الاهوار اذ ان مناخ المنطقة صحراوي جاف قليل الامطار (اقل من 155 ملم / السنة) ويسهم نهر الكرخة بقدر معين من حياة الاهوار بينما يفقد نهر دجلة اكثر من 90% من مياهه في الاهوار بينما يتلاشى مجرى نهر الفرات عند مروره في هور الحمار.

تمتاز المنطقة بغطاء نباتي كثيف يسوده نباتا القصب والبردي والعديد من النباتات الطافية والغاطسة كما انها تعتبر بيئة ملائمة للعديد من الحيوانات المائية

كالاسماك والطيور وغيرها وتمتلك المنطقة قدرة كبيرة على الانتاجية يمكن الاستفادة منها بشكل افضل بتوفير الدراسات والمعلومات الاساسية حولها وخاصة معرفة العوامل البيئية لها.

لمحة عن الآثار السومرية في مناطق الأهوار

هناك قصص كثيرة تروي عن أشباح حول نيران المساء يقال انها تحرس كنزاً غامضاً على جزيرة قد اخفتها بالسحر عن عيون البشر. ان رجال العشائر المحليين بان هناك ذهباً مدفوناً هنا ولكن على حد علمي لم يستخرج أي ذهب من هذه المناطق . من ناحية اخرى جلب احد الاشخاص لـ (تسيغر) ختماً قديماً وقطعة من الرصاص عليها حروف فينيقية كما قيل له. وجون جورج تايلر الذي كان نائب القنصل البريطاني في البصرة في 1853م وقام باستكشاف اجزاء من البحيرة الكلدانية كما كان يسمى الاهوار ووجد طبقات رصاصية ملفوفة وموضوعة في اوعية وقد كتب عليها صلوات وادعية بواسطة المراقم. ويقول الخبراء ان هذه الكتابات تعود الى القرن السادس بعد الميلاد وباللغة المندائية التي يتكلم بها الصابئة وهم طائفة دينية قديمة لاتزال تسكن المنطقة. واذا كانت هذه الايثانات وليس الاختام موجودة قبل سنه فمن المحتمل انها كانت موجودة في عصور ما قبل الاسلام وحتى العصر السومري. بعض الايثانات صلبة ولكن بصلابة الصخر عالية جداً. وقد كتب شيفر عن تل اسود اجرد يبلغ ارتفاعه (30) قدماً فوق القصب ويسميه سكان الاهوار ايشان واقف ويعتقدون انه يؤشر مكان مدينة غابرة منسية. بعد هذا وجد شيفر تلاً اخر يبلغ ارتفاعه 50 قدماً ويسمى ايثان عزيزة ويقع هذا التلان العملاقان في منطقة السواعد شرق العمارة قرب الحدود الايرانية ويمكن العثور على كسر الفخار الملون الازرق وغير الملون في الايثانات. بين حين واخر يلتقط احد عرب الاهوار طابوقة كريمة مسطح عليها وكانه كتابة مسمارية او يجد بعض البناء المهندم الملون بلون اخضر غامق لماع وقد تكون بعض هذه الاشياء حديثاً نوعا ما كان تكون في العصور الاسلامية لكن

البعض الاخر ومنها اشياء لاتزال مدفونة ومختفية عن الانظار قد تكون قديمة اتت بعد السومريين اقوام سامية رحالة. الاكديون والآراميون من الشمال ومن الصحراء وامتزجت بالسومريين ونتج عنها (البابليين) لكن اصحاب الجاموس وصائدي الاسماك في الاهوار لم يتركوا دائماً بسلام فقد تبعت ذلك الامتزاج قرون من انتقال السلطة قوة الى اخرى من القوى المختلفة التي حكمت وادي الرافدين وعبر صراعات دموية بين الحكام. ثم وصل فاتحوا الشرق القديم الى المنطقة فقد ظهر (الآشوريون) المشاة والتهم الحربية المنتجة في بلاد ما بين النهرين. فقد مر حكم الاشوريون فترة من السلام النسبي ساد اربعمائة سنة من (1400 – 1000) ق. م. فضل خلالها ملوك القوى العظمى مصر بابل اشور ومملكة الحيثيين في الشمال ان يحافظوا على توازن دقيق في القوى في بابل شرع الملك العظيم حمورابي القوانين وشيد المعابد واصلح من حال الزراعة لكن المشاكل كانت قريبة وسرعان ما اصبحت المنطقة تحت ما يسمى (قسوة الوحشية التي لا يمكن التعبير عن فظائعها بالكلام) اشور ناصر بال ، شلمنصر، اوديزي، تفلاتبيلسر، سنحاريب، اشوربانيبال، ان اسماء الملوك الاشوريون ايزاء العرب الاهوار ففي عام (2000- 1500) ق. م. وفي عاصمته نينوى اعلن نفسه الملك العظيم ، الملك الجبار، ملك الكون، ملك اشور، ملك اركان العالم الاربعة) وبعد فترة قصيرة ومرت حملتان من حملاته الخاطفة التي امتد عبر الشرقين الاوسط والادنى الى جنوب ايران ففي الحملة الاولى طاردت مركبا له الحربية الملك البابلي (ميروداخ بلدان) الذي هرب جنوباً وحالفه الحظ في الوصول الى الاهوار حيث اختفى في منابت القصب وهرع المعدان لمساعدته فاصبح في ملجا امين وقد امر سنحاريب بتدوين الاتي في سجلاته:

لقد هرعت خلقه (خلق الملك) وارسلت جنودي الى وسط الاهوار والمستنقعات حيث يحثوا عن خمسة ايام كاملة لكنهم لم يعثروا عليه. ان شعب كالديا

والارامبين الذين لم يخضعوا لحكمي قد جردتهم من اراضيهم وجعلتهم يحملـون السلال ويفخرون الطابوق.

لقد اخضعت الحملة الثانية التي حدثت في 694 ق. م. سـنحاريب وهـو لا يزال هائجاً كالاسد الى الاهوار وقد كتب سنحاريب:

لقد وضعت جنودي الشجعان الذين لايعرفون الراحة علـى ظهـر الـسفن وجهزتهم لسفرتهم كما وضعت علفاً للخيول التي اركبتها السفن معهم. ابحـروا جنوباً على الفرات بينما سرت بمحاذاتهم على اليابسة. اوقف فيضان حدث فـي الاهوار سنحاريب ورجالة خمسة ايام بعد الاشوريون جاء الكلدانيون والميـديون الذين دمروا الامبراطورية الاشورية ثم البابليون الجـدد الـذين دحـر ملكهـم نبوخذنصر جيشاً مصرياً في 605 ق. م. لكن بابل كانت قد انتهت تقريباً في 539 ق. م فقد استولى عليها ملك الفرس كورش جاء الاغريقي فقد عبـر الاسـكندر الكبير جنوب شرق بلاد ما بين النهرين في طريق عودته من الهند الى طيسعون (سلمان باك – المدائن) ومات على دجلة متاثراً بحمى قد يكون اصيب بها فـي الاهوار وشيد نيارخوس ميناء قرب البصرة (التي لم تكن قد ظهرت الى الوجود بعد) ولا يبعد كثيراً عن ميناء المحمرة الحالي وقد عرف هذا الميناء بعدة اسماء: الاسكندرية، انطاكية، سياسينوجاراكس وكان ميناء مهم تعبره البضائع بين الهند وشبة الجزيرة العربية لم يبق له في الوقت الحاضر أي اثر يستبان عليه.

أهوار العراق

بين ثراء الجغرافية وفقر الواقع

تشكل الاهوار مورداً اقتصادياً هاماً. فهي زراعية خـصبة ومـصدر للثـروة السمكية ومواد البناء (القصب والبردي) ومصدر مهم للنفط والغاز اضـافة الـى موارد اخرى غير مستغلة اهمها السياحة بشقيها الترفيهي والعلمي وخاصة مراقبة هجرة اسراب الطيور وقد اجمع للغويين والجغرافيين العراقيين علـى ان كلمـة

الاهوار تطلق على الاراضي المنخفضة التي تغطيها المياه في جميع ايام السنة وفي مواسم معينة وتضم مناطق ضحلة واخرى عميقة نسبياً بعضها مغطى بالنباتات المائية والقصب والبردي والبعض الاخر يطلق عليه اسم البركة . اذ كلمة الاهوار تعبير جامع يعني مساحات المياه الدائمة والموسمية والتجمعات الكثيفة للنباتات المائية والقصب والبردي والمياه المفتوحة (البرك) وشبكات الجداول الواردة اليها والخارجة منها أي ان كلمة الاهوار لها مفهوم بيني وهيدرولوجي وجغرافي لا يتطابق مع كلمة المستنقعات marshes التي تطلق على اهوار العراق في الكتابات الغربية وخصوصاً البريطانية ومع الاسف فقد استعملت الترجمة الحرفية لهذه الكلمة الانكليزية غير ان واقع بيئة الاهوار مختلفة اختلافاً جوهرياً مع كلمة (مستنقع) ان المواصفات البيئية لاهوار العراق يختلف عن المستنقعات فمثلاً حركة المياه وكمية الاوكسجين المذاب وكثرة النباتات والاحياء واستمراريتها عبر التاريخ وانتاجيتها الحياتية تختلف جذرياً عن واقع المستنقعات.

ان الاهوار تشكل حالات بعضها يتماثل مع الانهار وفي جوانبها الاخرى تماثل البحيرات اضافة الى ذلك فان الاهوار تختلف عن البعض الاخر في صفاتها الهيدرولوجية والحياتية أي ان هذه المنطقة لا يمكن تبويبها ضمن نظام تصنيف المياه العذبة المعتمدة دولياً اذ ان مياه الاهوار تختلف مواصفاتها عن انواع المياه العذبة المثبتة في نظم التصنيف عليه فاننا مدعوون لاستخدام كلمة تدل على هذه البيئة بصورة دقيقة تضاف الى قاموسنا العلمي وهي الاهوار وتعني بدقة تلك الاجسام المائية الموجودة في وسط وجنوب العراق والتي تتميز بمواصفاتها خاصة تختلف عن مواصفات البحيرات والانهار والمستنقعات ومسطحات المد والجزر. وفي هذه المنطقة الواقعة على اطراف المحافظات الجنوبية في العراق، البصرة، الناصرية والعمارة توجد عدة مدن وقصبات وقرى مستقرة ولذا فليس من الصحيح ان يتصور احد ان سكان المنطقة أي منطقة

الاهوار على درجة واحدة ن الثقافة والحياة الاجتماعية والاقتصادية وانما ينقسم الناس فيها الى نوعين:

1. سكان المدن والقصبات والقرى: التي تقع على اطراف الاهوار وهي مناطق ماهولة بالسكان ولها نشاطها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الخاص تماماً كما هي الحالة في مدن العراق الاخرى.
2. سكان داخل الاهوار: وهم المواطنون الذين يسكنون في جزر وسط لاهوار وهذه الجزر قد تكون جزراً طبيعية ناتجة عن الترسب المستمر في الاهوار بسبب طمي الانهار او جزراً صغيرة يقيمها السكان انفسهم بجمع كميات مناسبة من القصب والبردي وكسبها فوق المسطحات المائية واقامة بيوتهم عليها وهذا ما يصطلحون عليه بالـ (دبون) ويعيش هؤلاء الناس عادة على صيد الاماك وصيد الطيور وتربية المواشي كالجاموس والابقار ومنهم من يحترف زراعة الرز والتي تعتمد عادة على المياه الوفيرة والمستنقعات. والناس هنا سواء كانوا من سكان المدن والقرى المجاورة للاهوار او كانوا من القاطنين فيوسط الاهوار ينتمون الى قبائل عربية اصيلة مثل: ربيعة، تميم، سواعد، مخزوم، بني اسد، وغيرها من القبائل والعشائر والافخاذ والبطون، ان مساحة الاهوار ترتبط بنظرة الباحثين حولها فبعضهم يعتبر كافة المناطق المختلفة بشمال البصرة وحول الناصرية والعمارة وواسط حتى محافظة المثنى بالعراق تشملها صفة الاهوار وبعضها يحصرها في المناطق التي تغمرها المياه بشكل شبة دائم وما حولها ولذا فان بعض الدارسين يبلغ بمساحة الاهوار الى (35000) كم وبعضهم يوجزها فيوصلها الى (7000) كم وهذا التباين يشمل عدد سكان المنطقة كذلك .. الا ان عدد سكان الاهوار الذين تنطبق عليهم هذه الصفة يتراوحون بين (700) الف نسمة الى مليون نسمة من اهوار واسط مروراً بمناطق ميسان شمال البصرة الى ما يحيط بالناصرية من الاهوار.

ولم تسلم الاهوار من طاغية العصر فتعرضت الى عملية تدمير منظمة ادت الى تجفيفها كاملة وخسرت بذلك البيئة العراقية مصدراً مهماً من عوامل التوازن البيئي سواء جهل واستبداد نظام الحكم المخلوع فجفف الاهوار لغرض سياسي هو مداراة الفشل في مواجهة تيارات المقاومة الشعبية التي كان مصدرها الاهوار.

الاهمية الاقتصادية لمناطق الاهوار

تعتبر مناطق الاهوار الجنوبية في العراق من اكثر اقاليم المنطقة ثراء، فرغم التخلف والاهمال المتعمد لهذه المنطقة ثقافياً واجتماعياً وصناعياً، فان اكواخ الفقراء من هذه المناطق ومعسريها تشيد فوق بحيرات النفط الغنية جداً فمن المعلوم منطقة الجنوب العراقي تعد من اغنى اقاليم هذه المنطقة وهذه الثروة العظيمة ففي هذه المنطقة وهذه الثروة العظيمة ففي هذه المنطقة وحواليها بتفجير نفط العراق غزيراً في كل من حقل (بزركان) في محافظة ميسان وحقل (غربي القرنة) وحقل (الرميلة الشمالي) في البصرة وحقل (نهر عمر) وحقل (اللحيس) وكلاهما غربي البصرة وحقل (مجنون) في حدود العمارة وغيريهما. وتقول بعض المعلومات ان اخر برميل نفط في العالم سيتم اخراجه من هذه المنطقة. وتفيد هذه المعلومات المؤكدة ان منطقة الاهوار الجنوبية تضم اهم احتياطي للبترول والغاز في العراق كله. اما الثروة الزراعية التي تمتاز بها المنطقة الجنوبية وخصوصاً اهوار الجنوب المحيطة بها فهي التمور حيث يشتهر العراق بهذا المحصول وجودته ويزرع في البصرة حوالي العشرين مليون نخلة الا ان هذا العدد تناقص منذ الثمانينات الى اقل من النصف (1.6) مليون نخلة فقط بسبب الحروب وسياسة التجفيف للاهوار في الجنوب وسياسة التصحر المتعمدة والسياسة المدمرة للزراعة في البلاد. وتوجد في الجنوب وعلى حافات الانهار والاهوار افضل انواع النخيل في العالم وخصوصاً في البصرة والناصرية ولعدة

سنوات حيث كان التمر العراقي يغزو الاسواق العالمية في اوروبا وغيرها وكانت الهند وباكستان وبلدان افريقيا تستهلك كميات كبيرة من هذا النتاج كل عام خصوصاً في الخمسينيات والستينيات .

كما تعد هذه المنطقة من اخصب الاراضي في العراق فضلاً عن توفير وصلاحية المناخ لزراعة القمح والرز والشعير والذرة البيضاء والبطيخ الاحمر والطماطة والباقلاء غيرها.

اما الثروة الحيوانية فاشهرها الجاموس والابقار والاغنام وتعتبر الاهوار البيئة الطبيعية لعيش الجاموس الذي لا تيسر له العيش في غير هذه المناطق حتى ان المنطقة قبل الثمانينات كانت تضم عشرات الالاف من هذه الثروة انها تضررت كثيراً بسبب حملة التجفيف التي قام بها النظام العراقي ضد الاهوار حيث كانت الاهوار الحنوبية ماوى للملايين من الاسماك التي تتكاثر ايام الربيع وتزداد اعدادها بشك مستمر في هذا الفصل وتضم افضل الانواع في المنطقة والعالم.

وتوحل الطيور موقعاً متقدماً في ثروة الاهوار حيث تعتبر غابات الاهوار من القصب والبردي ومن اهم المناطق لتكاثر الطيور وسكنها وهجرتها من مناطق العالم المختلفة كالمناطق الباردة مثل سيبيريا وشمال اوروبا خصوصاً في ايام الربيع والصيف وتضم الطيور في اهوار العراق اهم الفصائل النادرة من هذه الثروة العظيمة التي فتك بها النظام العراقي او بددها في الارض بعد عمليات التدمير المتعمدة للاهوار الجنوبية التي كانت ماوى عالمياً للطيور كما تقول احدث الدراسات لهذا الموضوع ومن اهم انواع الطيور في المنطقة كانت (البلابل ومالك الحزين و اللقلق والبرهان والبط والهدهد والحذاق والصيومي والوردة والاوز) وهناك اسماء شعبية اخرى تطلق على انواع مختلفة من الطيور بعضها يستعمله الاهلون للطعام او التجارة وبعضها طيور زينة لا تستعمل للغذاء. اضافة الى ما تقدم فان اهوار الجنوب تحتوي على ثروة (البردي) و(الجولان) و(القصب)

وسيقانه قبل جفافه كما تعتبر هذه المواد عجينة لصناعة الورق في البلاد كما تعتمد صناعة السكر على غابات (قصب السكر) في العمارة وغيرها من مدن الجنوب .. هذا ويمكن ان نتصور الاعمال والحرف التي يباشرها الافراد في هذه البيئة التي تمتاز بهذه الثروة حيث الزراعة وصيد الاسماك وصيد الطيور وتربية الحيوانات والتجارة وهذه المواد وغيرها هي المصدر الوحيد الممول للحالة المعيشية للمنطقة والمناطق المجاورة.

اهوار المنطقة الجنوبية وعودة الحياة لها

بعد القضاء على النظام البائد جرت عدة محاولات خجولة لاعادة الحياة الى الاهوار في محافظات البصرة وميسان والناصرية والتي تمثل ضحايا الحروب والدكتاتورية التي نشبت في تلك المناطق. فقد كانت اهوار تلك المنطقة بطبيعتها الخلابة وسماتها الطبيعية ونمط الحياة العربية وتقاليدها التي امتدت لعدة اجيال ونمط حياة ناسها الخاصة بحيث نالت اجتماع كثير من الدول كالمانيا وامريكا وفرنسا والى وضع الافكار العديدة لتحويلها الى اكبر منطقة سياحية في العالم مثل فلوريدا في امريكا والبندقية في ايطاليا لقاء استغلال حقول النفط والثروات الطبيعية فيها ولكن جنون النظام السابق وصرفه الاموال على الاسلحة والاضطرابات التي عمت المنطقة جعلت من راس النظام البائد مرعوباً من الاهوار لا سيما بعد احداث الخليج الثانية فحاول الغائها ومسحها على الخريطة بحملة بشعة ومرتبة لتدمير ثقافة وتراث سكان المنطقة التي تعود لاكثر من اربعة الاف سنة، فقد افتتح قنوات وانهر تصريف المياه مثل نهر العز كذلك ذبح الكثير من قطعات الجاموس التي موطنها الطبيعي الاهوار حتى ان احد الخبراء وجد طابوراً متحجراً من السلاحف امتداده اكثر من كيلومتر واحرق قصب البردي دون أي اعتبار لحياة الناس واحتجاج العالم خاصة عمليات التسمم بالمبيدات الكيمياوية التي ابادت الثروة السمكية والطيور لتقضي على عالم الجمال والبيوت العائمة بالتشرد للحياة البشرية ليحول ابنائها الى مغتربين فيوطنهم فقراء ينظرون

الى الحرائق والى مواشيهم التي نفقت وقتلت لتجف مساحات شاسعة من المياه حتى دون ان يابة لاي الاصوات الخيرة من الحفاظ على هذه النعمة البشرية لكونها اغلى كنز في العالم مليء بالحياة المائية وخاصة ما قامت به جامعة كوينزلاند الاسترالية ومسترسون من جامعة ديوك ومدير معهد الاراضي السبخة في بريطانيا حول مدى اهمية تلك الاهوار التي قدرت الاقمار الصناعية مساحتها باكثر من (16) الف كيلومتر مربع. ان ما تقوم به الان المنظمات والخبراء لاعادة الحياة لتلك الاهوار امر يستحق الاهتمام ومنها جمعيتنا (الارض الخضراء) التي تضم متخصصين في البيئة الزراعية. وحملتها التي شملت اكثر من الفي عائلة وبالتعاون مع الجمعيات والمنظمات الاجنبية والعربية (الخليجية خاصة) وليشمل جهدها اكثر من الفي فلاح في اوسع حملة احصائية لتسهيل العودة الطبيعية لهم بمشروع عالمي لتعود الاهوار كما اسماها السائحين سابقاً بجنة عدن ولتزول تلك الايام السوداء دون رحمة بتعاون كل القوة الخيرة.